مقدمة القسم الثالث

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

كما رأينا في الجزء الثاني ، تغيرت جغرافية الثقافة وتطورت بمرور الوقت ، مما أدى إلى ظهور اختلافات مهمة في تقاليد البلدان المختلفة . ومع ذلك ، بالنسبة لمعظم جغرافيي الثقافة ، قدمت المظاهر الطبيعية فكرة أساسية دائمة عبر الزمان والمكان . يشير تطور كلمة "مظاهر طبيعية" إلى المعاني المتنوعة وراء المصطلح . في هذا القسم ، يقوم كل من دبليو جيه تي ميتشل وجيه بي جاكسون بتفكيك أصل المصطلح بعناية . في اللغة الإنجليزية القديمة واستخداماته الجرمانية المختلفة ، تشير كلمات مثل landscipe و landschaften و landtschap إلى أرض تحت ملكية يمكن تحديدها من قبل فرد أو مجموعة . كانت خطوة قصيرة من هذا الارتباط إلى التقسيمات الإدارية الأكثر رسمية للأرض ، فضلاً عن التمثيل القانوني والسياسي القائم على التعريف بأراضي معينة ، والذي حدث في معظم أنحاء شمال أوروبا .

إن انتشار الرأسمالية ، مع الملكية الخاصة للأرض كواحدة من ركائزها القانونية والمؤسسية ، وفر السياق الأوسع لهذا التطور الخاص للمصطلح في شمال أوروبا . ففي اللغات الرومانسية ، استحضرت كلمتا paysageالفرنسية و paisaje الإسبانية شعورًا بمنطقة متماسكة ، أصغر من الدول القومية اليوم ، والتي تمتلك طابعًا محليًا مميزًا . وما تزال هذه المصطلحات ومعانيها مهمة في فرنسا وإسبانيا اليوم ، حيث يمكن أن يكون التنوع الإقليمي في اللهجة والمطبخ والنباتات وما إلى ذلك ملحوظًا .

في أوائل القرن السابع عشر، بدأ رسامو المناظر الطبيعية الهولنديون في استخدام المظاهر الطبيعية بطريقة تصويرية أقرب إلى الطريقة التي يُفهم بها شعبيًا اليوم : كمناظر طبيعية . لم يقتصر هذا الفهم للمظاهر الطبيعية على الرسامين ، بل استخدمه أيضًا في المسرح ومهندسو المظاهر الطبيعية . وبالتالي اكتسبت المظاهر الطبيعية طابعًا بصريًا للغاية . لقد سار صعود الصورة البصرية للمظاهر الطبيعية جنبًا إلى جنب مع التغيرات في نطاق وطبيعة علاقات القوة . إن تمثيل شيء ما يعني تحويله إلى شيء ؛ كما علق جون بيرجر الشهير : "غالبًا ما تصور اللوحات الزيتية أشياء ، أشياء يمكن شراؤها في الواقع . إن رسم شيء ما و وضعه على قماش ليس مختلفًا عن شرائه و وضعه في منزلك".

لقد أدى تأطير المظاهر الشاملة للأفق والأرض ، وانتفاخ الجبال ، وانحناء الشاطئ إلى تشكيل مفاهيم المظاهر الطبيعية بحيث أصبحت التمثيلات المرئية للمظاهر الطبيعية على الأقل بأهمية الأرض الحرفية نفسها التي تم تصويرها - إن لم تكن أكثر أهمية . يمكنك تجربة التأثير المهم لتمثيلات المظاهر الطبيعية بنفسك في عطلتك أو إجازتك القادمة ، من خلال الانتباه عن كثب إلى "المظاهر الطبيعية" المشار إليها على اللافتات في المتنزهات الوطنية والمعالم التاريخية وما شابه ذلك . هل كنت تعرف بالفعل ، إلى حد ما ، ما الذي تتوقعه في هذه الأماكن ؟ هل تبدو "المناظر الطبيعية الخلابة" مثل البطاقات البريدية أو اللوحات ؟ إذا كان الطقس العاصف أو الكوارث الطبيعية مثل الحرائق أو وجود سياح آخرين يغير أو يعيق رؤيتك المتوقعة ، فهل تشعر بخيبة أمل ؟

يختلف جغرافيو الثقافة المعاصرون إلى حد ما حول معنى المظاهر الطبيعية ، وما يشمله المصطلح وما لا يشمله ، وأفضل طريقة لدراسته . يرتبط الاستخدام الأكاديمي الحديث لمصطلح المظاهر الطبيعية ، على الأقل في الولايات المتحدة ، بالنهج الخاص الذي تبناه كارل أو. ساور في فهم العالم من حوله ، كما هو مفصل في مقالته المنشورة في عام 1925 بعنوان "مورفولوجية المظاهر الطبيعية" . بالنسبة لساور، عملت

العمليات الثقافية التي صنعها الإنسان على تشكيل البيئة الطبيعية ، وكانت النتيجة العالم المرئي من حولنا : المظاهر الطبيعية الثقافية . كانت مهمة الجغرافي تقديم وصف مفصل لمنطقة ما ، ثم الكشف بدقة عن طبقات النشاط البشري التي شكلت المظاهر الطبيعية المرئية بطرق معينة .

النهج الصرفي لساور ، سريعًا لقد أصبح هذا النهج الخاص للمظاهر الطبيعية محفورًا في المشهد الجغرافي الثقافي الأمريكي من خلال تأسيس ما يسمى بمدرسة بيركلي (للجغرافيا ، في جامعة كاليفورنيا ، بيركلي) في أوائل الثلاثينيات . ومع وجود ساور على رأس القيادة ، وتوظيف زملاء رئيسيين وتدريب عدد من الطلاب الذين سيحملون إرثه إلى الأمام ، فقد هيمن هذا النهج الخاص للمظاهر الطبيعية على جغرافية الثقافة الأمريكية خلال الخمسينيات .

ومع ذلك ، تأثر ساور نفسه بعمق بجذور أوروبية أعمق (ينظر مقدمة الجزء الثاني) . اعترف ساور علنًا بديونه لجغرافيي القرن التاسع عشر الألمان ونهجهم المنهجي لدراسة العناصر المرئية للمظاهر الطبيعية . إن فكرة المظاهر الطبيعية كونها مجموعة متماسكة من السمات الطبيعية والثقافية ، صغيرة بما يكفي ليتم التقاطها في لمحة ، تستحضر أيضًا تقليدًا طويلًا من الجغرافيين الفرنسيين واهتمامهم بالتنوع الإقليمي . وكما ناقشنا في القسم السابق ، فإن النهج البريطاني للمظاهر الطبيعية ، على النقيض من ذلك ، أكد لفترة طويلة على تاريخ المكان في تحليل المظاهر الطبيعية .

وحتى أكثر من التقاليد الألمانية ، عبرت المظاهر الطبيعية عن تتويج لطبقات من التفاعل المكثف والعميق والمحفوف بالمخاطر في كثير من الأحيان بين المجتمعات البشرية والعالم الطبيعي من حولها . والواقع أن تركيز ج. ب. جاكسون على التاريخ الثقافي في نهجه للمظاهر الطبيعية يدل على أن مدرسة بيركلي نفسها قد طورت انحرافًا كبيرًا عن النهج المورفولوجي الأصلي لساور بحلول منتصف القرن العشرين . وفي المقتطف من عمل جاكسون المدرج في هذا الجزء ، ستلاحظ أن التاريخ الثقافي أصبح جانبًا أكثر أهمية في دراسات المظاهر الطبيعية الأمريكية بحلول الخمسينيات ، مما جعل هذا الخيط من جغرافية الثقافة الأمريكية أقرب إلى التقليد البريطاني .

وبحلول الستينيات ، كان كثيرون يرون مثل هذه الأساليب وصفية للغاية وذاتية وخصوصية ، وعلى هذا النحو غير علمية إلى حد ما . وبشكل عام ، تراجعت أهمية تفسير المظاهر الطبيعية كمجال اهتمام بين الجغرافيين البشريين ، حتى أنه بحلول عام 1983، أكد قاموس المفاهيم في الجغرافيا البشرية أن المظاهر الطبيعية قد تراجعت أهميتها في السنوات الأخيرة بسبب التركيز المتزايد على التحليل العلمي والنظرية وبناء النماذج . وبدلاً من ذلك ، حول العديد من الجغرافيين البشريين انتباههم إلى ما كان يُعتقد أنه مناهج أكثر موضوعية وكمية وقانونية .

وقد ساعدت هذه المساعي بشكل متزايد (وقد يقول البعض مدفوعة) بتحليل البيانات القائم على الكمبيوتر . والواقع أنه قد يكون من الممكن تقديم حجة مفادها أن أنظمة المعلومات الجغرافية تسهل اليوم نوعًا معينًا من النهج في التعامل مع المظاهر الطبيعية ، وهو النهج الذي يتجذر بعمق في البيانات القابلة للقياس التي تم تجميعها وتحليلها بواسطة الكمبيوتر . ومع ذلك ، لا يضع جميع جغرافيي الثقافة مناهجهم التفسيرية للمظاهر الطبيعية على كرات العث . لقد تم إحياء تقليد دائم لاستكشاف الحاجة البشرية للاتصال بالمكان ، وكيف يسكن البشر، وعلاقة الناس بمحيطهم في سبعينيات القرن العشرين (ينظر أيضًا مقدمة الجزء الخامس).

وقد أكد هذا التيار الإنساني في الجغرافيا على الأبعاد العاطفية والإدراكية والتجريبية للمظاهر الطبيعية . إن وصف يي فو توان الدائم **للجغرافيا** بأنها **"دراسة الأرض كونها موطن الناس"** يستحضر مفهوم المنزل الذي يشكل جوهر عمل جغرافيي الثقافة الإنسانيين . يستحضر المنزل التعلق والعاطفة والتقييم الوجودي

لمكان الإنسان على الأرض ، بالمعنى الحرفي والمجازي . وبالتالي يمكن للمظاهر الطبيعية الحنينية أن توجد في الأحلام والذكريات ويمكن التأثير على المظاهر الطبيعية (والتأثر بها) على مستويات عاطفية تنطوي على الحب أو الكراهية . في النهاية ، تسمح المظاهر الطبيعية للبشر بالسكن في العالم ، وفقًا لجغرافيي الثقافة ذوي الميول الإنسانية .

في تيار آخر داخل الجغرافيا البشرية ، أدى ظهور وجهات نظر نقدية مثل الماركسية والنسوية والظهور العام للنظرية الاجتماعية في السبعينيات والثمانينيات إلى نهج أقل خصوصية ، وفي الوقت نفسه أكثر تسييسًا ، للمظاهر الطبيعية . لقد فهم هؤلاء العلماء أن المظاهر الطبيعية تعكس علاقات القوة المجتمعية ، ولا يمكن ببساطة عدها بالقيمة الظاهرية كمجموع عناصرها المادية . بعبارة أخرى ، هناك المزيد في المظاهر الطبيعية مما تراه العين . بالإضافة إلى ذلك ، أصبح من المقبول بشكل متزايد أن المظاهر الطبيعية لا تعكس القوة في المجتمع فحسب ؛ بل إنها تعمل أيضًا على إعادة إنتاج علاقات القوة وتطبيعها وكذلك التنافس عليها . يشكل الفاعلون المهيمنون في المجتمع المظاهر الطبيعية لتعكس مُثُلهم ومخاوفهم وأولوياتهم ، في حين يتم حذف الأصوات التابعة حرفيًا من المظاهر الطبيعية .

بعبارة أخرى ، كانت المظاهر الطبيعية بعيدة كل البعد عن السجل المكتوب السلبي للأنشطة البشرية ، كما هو الحال في النهج المورفولوجي لساور. إن المظاهر الطبيعية في حد ذاتها لاعب نشط في الشؤون الإنسانية . وكما هي الحال مع مصطلح الطبيعة (الذي تمت مناقشته في الجزء الرابع ، "الطبيعة") ، فإن المظاهر الطبيعية تشفر وتضفي طابعًا طبيعيًا على علاقات الهيمنة والتبعية ، وخاصة فيما يتعلق بالنساء والأقليات العرقية والشعوب المحتلة . وعلاوة على ذلك ، فإن عناصرها تسهل وتديم علاقات القوة غير المتكافئة . ومن الأمثلة على المناهج النقدية للمظاهر الطبيعية المدرجة في هذا الجزء فهم جيليان روز النسوي للمظاهر الطبيعية كونها تسهل إضفاء الصفة الموضوعية على المرأة وكذلك الأرض ، وقراءة دون ميتشل المستوحاة من الماركسية للمظاهر الطبيعية الزراعية في كاليفورنيا كونها تنطوي على علاقة استغلالية مع العمال الزراعيين ، وتأكيد دبليو جي تي ميتشل على أهمية النظرة وعلاقات القوة في مناقشته لرسم المظاهر الطبيعية .

في أواخر الثمانينيات وخلال التسعينيات ، ومع التحول الثقافي في الجغرافيا البشرية (الذي تمت مناقشته في المقدمة الرئيسية) ، تحول انتباه بعض جغرافيي الثقافة بشكل متزايد إلى قضايا اللغة والتمثيل حيث يتم التعامل معها من خلال المظاهر الطبيعية . وقد استخدم جغرافيو الثقافة النظريات والأساليب التي تم تطويرها في اللغويات والنقد الأدبي وعلم العلامات - المجالات التي تؤكد على بناء المعنى من خلال الرموز والأنظمة الرمزية واللغات - لقراءة المظاهر الطبيعية كنوع من النص .

توفر مختارات دينيس كوسجروف حول الجوانب الرمزية للمظاهر الطبيعية ، والقراءة الدقيقة لجيمس دنكان للمظاهر الطبيعية الكاندية ، أمثلة على هذا النهج . يؤكد هؤلاء الجغرافيون أنه على الرغم من أن إحدى الوظائف الأساسية للمظاهر الطبيعية هي تثبيت المعاني المشفرة في الداخل ، كما هو الحال مع النصوص الأخرى ، **فإن المظاهر الطبيعية هي وسيط غير مستقر وبالتالي فهي مفتوحة لتفسيرات وإعادة صياغة مختلفة** . وعلى هذا فإن عمل دنكان المقتبس هنا يفسر المعاني المشفرة في المظاهر الطبيعية الكاندية في السياق التاريخي لظهور ملكية قوية ، ويحلل كيف عملت عناصر البيئة المبنية على بناء الدعم لحاكم قوي في نظر الرعايا . وهناك علاقة تبادلية مفيدة بين المظاهر الطبيعية المادية وتمثيلها ، حيث يشكل التمثيل جزءًا كبيرًا من معنى المظاهر الطبيعية .

وعلى حد تعبير ستيفن دانييلز ودينيس كوسجروف ، "لفهم المظاهر الطبيعية المبنية ، لنقل حديقة إنجليزية في القرن الثامن عشر، من الضروري عادةً فهم التمثيلات المكتوبة واللفظية لها ، ليس كونها "رسومًا

توضيحية" ، أو صورًا تقف خارجها ، ولكن كونها صورًا مكونة لمعناها أو معانيها . وبطبيعة الحال ، فإن كل دراسة للمظاهر الطبيعية تعمل على تحويل معناها بشكل أكبر، مما يضيف طبقة أخرى من التمثيل الثقافي". وبالتالي فإن دراسة تمثيلات المظاهر الطبيعية مهمة تمامًا لفهم كامل مثل الانغماس المادي في المظاهر الطبيعية الحرفية ، كما هو الحال مع الاستكشاف القائم على الميدان .

كما هو الحال مع زملائهم الأكثر انتقادًا تقليديًا الذين ناقشناهم أعلاه ، أكد هؤلاء الباحثون أيضًا على علاقات القوة المشفرة في المظاهر الطبيعية . عادةً ، **تكون المجموعات المهيمنة هي تلك المخولة بترك علامتها - حرفيًا ومجازيًا - على المجتمع** . ولكن نظرًا لسيولة الأنظمة الاجتماعية والمكانية على حد سواء ، فليس من المستغرب أن تكون المظاهر الطبيعية غير المستقرة أيضًا مشاركين في الطعن في علاقات القوة وإعادة صياغتها . إن الفارق المهم بين هؤلاء الجغرافيين الذين يتعاملون مع المظاهر الطبيعية كونها تبلور علاقات القوة التاريخية والمادية ، وأولئك الذين لديهم ميل أكثر إلهامًا بالنص ، هو تركيز الأخير على التمثيل : سواء بالمعنى الذي ناقشناه أعلاه ، للمظاهر الطبيعية كما تم تصويرها في الفن والأدب والأفلام والتصوير الفوتوغرافي ؛ وبالمعنى الذي كان لتمثيلات المظاهر الطبيعية النموذجية دور قوي في تشكيل كيفية رؤيتنا وتفسيرنا للعالم من حولنا .

في الواقع ، تعرض ما يسمى بجغرافيي الثقافة "الجدد" في بعض الأحيان لانتقادات بسبب إفراطهم في التأكيد على التمثيل ، ونسيان المشهد الحرفي أو حتى إنكار وجود مشهد "حقيقي" خارج التمثيل . وعلى الرغم من أن الاختلافات بين جغرافيي الثقافة الأكثر انتقادًا تقليديًا الذين يتبنون مناهج مستوحاة من الماركسية أو النسوية ، وعمل أولئك الذين يركزون على اللغة والتمثيل ، قد تم تسليط الضوء عليها في بعض جغرافية الثقافة الحديثة نسبيًا - على سبيل المثال في مقال دون ميتشل المدرج هنا - في الواقع ، فإن هذه الأساليب لها الكثير من القواسم المشتركة ، وبمرور الوقت هدأ العداء بين مختلف المجموعات الفرعية إلى حد كبير.

ومع الألفية الجديدة ، حاول بعض جغرافيي الثقافة بوعي الابتعاد عن المظاهر الطبيعية كونها تمثيلية . يسعى جغرافيي الثقافة بدلاً من ذلك إلى ما أصبح يُطلق عليه المظاهر الطبيعية غير التمثيلية : بعبارة أخرى ، المظاهر الطبيعية التي توجد خارج البشر ومرشحاتهم التفسيرية المهيمنة (خاصة الرؤية) . يقترح هؤلاء الجغرافيون أن المظاهر الطبيعية يمكن فهمها على أنها هياكل سائلة تمامًا في عملية تماسك وانهيار مستمرة أثناء تحركنا عبر الفضاء . وبالتالي ، بدلاً من تشكيل كيانات مادية ثابتة وساكنة تتسم بطابع بصري في المقام الأول ، فإن المناهج غير التمثيلية تنظر إلى المظاهر الطبيعية كونها نوعًا من الأداء الذي يتم تنفيذه كثيرًا مثل الموسيقى أو المسرح .

وقد أدى هذا إلى توسيع التركيز على المظاهر الطبيعية إلى ما هو أبعد من ذلك "الجزء من سطح الأرض الذي يمكن فهمه في لمحة" ليشمل غير المرئي وغير البشري والعلائقي . كان جغرافيو الثقافة البريطانيون نشطين بشكل خاص في هذا السياق ، مع وجود مناهج غير تمثيلية . إن المناهج المتبعة في العيش والأداء والقيام بالجغرافية الثقافية هي مناهج توضح هذا النهج . إن اختيار مايكل بول هنا حول الاستخدام الشخصي للصور المجسمة يوضح هذا النهج ؛ بالإضافة إلى ذلك ، يتضمن قسم الطبيعة في هذا الكتاب أعمالاً -مثل الاختيار الذي قام به كلوك وجونز - والتي تعد غير تمثيلية في النهج .

ورغم أن فكرة المظاهر الطبيعية يمكن تتبعها من خلال سلسلة من التيارات التاريخية ، إلا أن الدراسات العلمية نادراً ما يتم وضعها في مثل هذه الصناديق الأنيقة . بل إن هناك ، وكما توضح المقالات المدرجة في هذا الجزء بشكل جيد ، تداخلاً كبيراً بين الفترات والمنظورات . على سبيل المثال ، يستند استكشاف جيليان روز للمظاهر الطبيعية إلى تقليد نسوي نقدي فضلاً عن الأساليب البصرية التي أبلغت بها

تاريخ الفن . بالإضافة إلى ذلك ، فإن المظاهر الطبيعية مصطلح لا يقتصر على جغرافيي الثقافة . والواقع أن جغرافيي الثقافة كانوا منذ فترة طويلة في محادثة مع غير الجغرافيين ونشطاء المجتمع والفنانين والمخططين.

لقد استفاد دون ميتشل ، الذي وردت مناقشته لمناظر كاليفورنيا الطبيعية هنا ، من مشاركته العميقة في النشاط المجتمعي . وأخيرًا ، وعلى الرغم من التعريفات المختلفة للمظاهر الطبيعية والأساليب المتبعة في التعامل معها ، فإن الخيط المشترك الذي يربط معظم جغرافيي الثقافة الذين يعملون في مجال المظاهر الطبيعية معًا **هو أهمية البحث الميداني** . وستجد أنه بالنسبة لجميع المقتطفات المضمنة في هذا القسم ، فإن مؤلفيها منغمسون بعمق في المواد الأولية التي يناقشونها ، سواء كانت هذه اللوحات التي حللها دبليو. جيه. تي. ميتشل ، أو تاريخ ولغة المظاهر الطبيعية الكاندية التي فحصها جيمس دنكان ، أو التفاعل الإثنوغرافي لمايكل بول مع مستخدمي أجهزة الاستريو الشخصية في المدن البريطانية .